المقتطف

خطبة[1]

لجناب العالم العامل الدكتور بوحنا ورتبات

وقع لي ان اقدّم في هذا الاجتماع الخطاب السنوي للطلبة الذين اكملوا دروسهم في هذه المدرسة ونالوا الآن شهاداتها . وهو زمن سرور لهم ولنا نحن اساتيذ المدرسة ومعلميها . لهم لان دروسهم السالفة التي اشغلتهم سنين كثيرة قد نالت شهادة حسنة وجعلت لهم مقاماً معتبراً بين الناس ووسيلة لاكتساب المعيشة وعلى الخصوص لانهم يخرجون الآن من هذه المدرسة وقد حصّلوا من العلم ما يمكّنهم من العمل المفيد لانفسهم ولوطنهم . ولنا لاننا نرى فيهم اثمار اتعاب جزيلة مصروفة في تربية الشبان الذين يُرجى منهم خير عظيم لابناء جنسهم

وليس المراد بهذا القول انهم قد بلغوا الغاية من العلم وصاروا اغنياء عن الاشتغال به في المستقبل لانهم يعلمون كما نعلم نحن ان ما توصّلوا اليه انما هو قسم يسير بفيدهم اذا زادوهُ ولا يكفيهم اذا لبثوا فيه لان من شانه الخسارة الدائمة فاذا لم يحافظوا عليه ولم يضيفوا اليه شيئاً كل يوم كان مثلهم مثل المال الذي يُنفَق ولا يُعوَّض او مثل الحياة التي تُنهَك وتُفنى لعدم الطعام والغذاء

فلا تنسوا اذاً ايها الشبان ان ما حصلتم عليه في هذه المدرسة هو بمنزلة رأس مال التاجر . اذا عاملتموهُ حق العمل زاد بين ايديكم واوصلكم اخيراً الى الثروة والرفعة واذا اسرفتموهُ وصرفتم ايامكم بالبطالة والكسل واللهو اصبحتم بلا شيء وصار الفقر والحاجة نصيبكم في الدنيا . انظروا الى معلميكم في هذه المدرسة أنظنون انهم باقون على ما تعلموهُ وهم في سنكم ألا ترون ان اكثر زمانهم لا يزال مصروفاً في سبيل الدرس والمشاهدة . او انظروا الى الذين تميّزوا بالنجاح في الدنيا وبلغوا رتبة عالية من مقام الفخر ألم يكونوا من العاملين المجتهدين . وان اتفق احياناً ان الغنى جاء احداً بلا كد ولا طلب فليس هذا شان العلم كما عرفتم من الخبرة وكما تعلمتم من قول الشاعر

ومَنْ طلب العلوم بغير درسٍ ... سيدركها اذا شاب الغُرابُ

(١) خطبها على الذين انهوا دروسهم من تلاميذ المدرسة الكلية في شهر تموز الماضي

فاياكم من السقوط في العجب بانفسكم والوهم انكم بلغتم رتبة العلماء وانتهيتم من الدرس والامتحان ما انتم الاّ احداث شاكم الدرس طول الحيوة والدهر يمتحنكم كل يوم ويعين لكم المقام الذي يستحقهُ مقدار كدكم وجهدكم

وربما قال قائل ان كانت هذه هي الخُطّة التي وصلنا اليها بعد السنين الطويلة والمشقة العظيمة فاننا لا نرضى بها اوانا لسنا في المنزلة الوضعية التي يشير اليها هذا الكلام . فهذا القول مبني على وهم وهو ان التعليم في المدارس العالية قائم بدرس مئات يوسية يحفظها التلميذ ثم يتلوها على المعلّم فاذا طالع دروسًا معلومة واوعاها في ذهنهِ نال المطلوب وصار عالمًا . وليس الامر كذلك في المدارس الكلية التي يُقصَد من دروسها ليس تقرير مبادئ العلم في عقل التلميذ فقط بل على الخصوص تهذيبهُ وتمرينهُ في الاشغال العقلية حتى يصير كفوًا للبحث والدرس لنفسهِ ويستطيع توجيه قواهُ العاقلة الى موضوع واحد دون غيرهِ فيجول فيهِ وينظر اليهِ من جهات مختلفة ويطّلع عليهِ حق الاطلاع ويحكم فيهِ الحكم الصوابي . واما الاساتيذ في هذه المدارس فانهم يفرضون الدروس ويراقبون الطلبة ويمتحنون اجتهادهم ونقدمهم وبواسطة الخطب يحدثون فيهم تاثيرًا خاصًا بالصوت الحي وعلى الجملة يربونهم في سبيل اقتناء العلم لانفسهم بحيث انهم اذا نالوا هذه التربية نالوا الغاية المقصودة واذا خرجوا من المدرسة دامت علاقتهم بطلب العلم طول الحياة . فهذا ما قصدناهُ في تعليمكم هنا لا مجرد مبادئ وقضايا تُحفظ غيبًا وتُتلى عند الامتحان بل على الخصوص تهذيب عقليّ يفيدكم في كل شيء تباشرونهُ من اعمال الحيوة وواجبات المهنة . وهو الفرق العظيم بين الذين حازوا التربية المدرسية العالية والذين اقتطعوا معارفهم في المدارس البسيطة ثم من الكتب ومعاشرة العلماء وهو الحاجة العظمى لاهل هذه البلاد الذين لا اعتقد انهُ يُفضَّل عليهم شعب من شعوب الارض في الذكاء وجودة العقل الطبيعية

هذا غاية العلم المدرسي فما هي غاية الحيوة التي كانت دروسكم السابقة استعدادًا لها ؟ هي مسئلة الجواب عليها مركب يشمل امورًا متعددة . اولها تحصيل المعيشة وهو امر ليس فيهِ عسر عظيم لمن يلازم البساطة والقناعة فلا نطيل الكلام فيهِ الاّ انهُ لا بد من ذكر وهم العامة ان كثرة المصاريف من ضروريات التمدن . ذلك صحيح في كل ما يتعلق بالنظافة العامة والاتقان في امر المسكن والطعام واللباس ولكنهُ لا يستلزم الاسراف والتبذير . وفي كل حال قد اتفق لكم عصر يدعو الى النشاط والاجتهاد في العمل مع الاقتصاد في التدبير حتى تستطيعوا مجاراة اهل زمانكم فلا تتخلفوا من الاقدام والكد وجمع ما يمكنكم من المال لانهُ جائز ولا يحرّم فيهِ الاّ البذخ من الجهة الواحدة والبخل من الجهة الاخرى . على انكم تجدون القاعدة الاغلبية ان الحصول على الغنى امر عسر نادر فاذا رُزقتم منهُ شيئًا فاحذروا من ان تكون عيشتكم في الدنيا عيشة الفقراء وحسابكم في الآخرة حساب الاغنياء بل اصرفوهُ

في سبيلهِ في ما يأول الى فائدتكم وفائدة المساكين

ومن غاية الحيوة الفوز بمقام فاضل بين الناس ولا شيء فيهِ من الحرام بشرط ان لا يتجاوز حدود الاعتدال ويصير بغيةً تخضع لها كل الصوالح وتتعدى على كل الحقوق وتتدانى الى استعمال الوسائل التي الحيلة والمكر والكذب تدخل فيها . فاذا قصدتم رفعة القدر والمنزلة بين الناس فلا يكن هذا شانكم بل اطلبوها على الوجه الجائز وهو وجه الجهد في اعمالكم والامانة للناس وتربية الصفات الرفيعة في نفوسكم ومراعاة العزّ عن الدناءة بانواعها واكتساب الصيت الحسن الذي قال سليمان انهُ افضل من الغنى العظيم

وممّا يُبتغى في الحيوة اللذة والسرور . والناس في ذلك مذاهب . فيقصدها بعضهم في الحرام والذين يطلبونها على هذا الوجه يجدون انها امرّ من العلقم وانها تلسع كالافعى وان طريقها طريق الهاوية هابطة الى الموت . ويطلبها البعض الآخر في الامور الجائرة ويجعلونها غاية الامل والمُنية العظمى التي تتجه اليها كل الاعمال فلا يلبثون ان يتغافلوا عن اعمالهم الواجبة ويصرفوا زمانهم في اللهو والطرب ويهبطوا من قدر الانسان الرفيع الى منزلة البطالين السفهاء . وليس السعادة ممّا يُقصَد في ذاتهِ بل هي ممّا ياتي من القيام بواجبات الحيوة فاذا لم يجدها الانسان في اعمالهِ اليومية كان بالحقيقة شقيًّا

ولا ريب ان افضل واثبت ما ينالهُ الانسان من هذا القبيل هو ما ينشأ عن الخدمة المفيدة لابناء جنسهِ . فاننا نرى ان الذين تميّزوا في الذكر الحسن من الاعصر القديمة الى الآن والذين كُتِبَت اسماؤهم على صفائح التاريخ ولا تمحوها الزمان هم الذين خدموا وطنهم في زمانهم وربما كانت تلك الخدمة ممتدة الفائدة الى ايامنا هذه . وهل تظنون ان تلك الاعمال الجيدة التي افرغوا حياتهم لها واجهدوا قواهم في انجازها سواء كانت من باب السياسة او الدفاع عن حرية الامة وراحتها او البحث في اسرار العلم ونشرها بين الجمهور او النصر للرقيق والمظلوم او غير ذلك ممّا يقصدهُ الانسان لخير البشر لم تأتِ بلذة باطنة لفاعليها . بلذة اشرف بما لا يقاس ممّا يطلبهُ كثيرون في جمع المال او في كاس الصفا او في مجامع اللهو والطرب او في اعمال ظلمة الليل

ولا تقولوا ان ابطال التاريخ قليلون وانكم لستم منهم لانكم لم تُعطَوا ما أُعطوهُ من العقل والدراية والحزم والمقام والكيفيات التي تحيط بالانسان وتمكّنهُ من الاعمال الكلية التي تهب الامة خيرًا عظيمًا وتكسبهُ مجدًا لا يزول . لانهُ ولو تفاوت عدد الوزنات بين الناس . ولو اختلفت الوسائل الموافقة للعمل والنجاح فان لكل واحدٍ منا شيئًا منها مهما كان يسيرًا فليكن امينًا فيهِ واذا كان مراقبًا لما تلقيهِ العناية الالهية امامهُ من وسائط عمل الخير وجد ما يُشغِل حياتهُ بالفائدة للغير وما يملأ نفسهُ بالسرور غير انهُ لابد من اخلاص النية في ذلك لانكم اذا لم تقصدوا خير القريب الاّ من حيث ارتداد

الخير والشر لانفسكم فانما تفسدون عملكم . لانكم تهملون ما يمكنكم عمله اذا لم يكن لكم فيه مجد بين الناس وتسقطون الى منزلة الحمالين الذين اذا جعلوا الخير وسيلة لرفعتهم ربما جعلوا الشر ايضاً خادماً لفائدتهم الدنية وحطوا ارفع ما تتجه اليه قوى الانسان الى ادنى الغايات واردأها . هذا وان الانسان الذي يفعل ذلك يحسب ان البشر فقط يراقبون عمله وينسى ان الله هو الرقيب العظيم وانه لا يمكن مخادعته تعالى . ينسى ان في اعماق النفس وفي خفاء الضمير اعلى اللذة والسلام وان الثواب الارفع هو ما يأتي من الله لا من الناس

وليس هذا الكلام ما سمعتموهُ المرة الاولى في هذا المكان . بل هو تكرير التعليم الذي طالما قصدنا ان نقررهُ في عقولكم لعله يتمكن فيكم ولا يفارقكم طول الحياة . فاننا قد انذرناكم مراتٍ لاتحصى ان راس الحكمة مخافة الله . ان الديانة هي التقوى . ان استقامة القلب قبل استقامة السيرة . ان البر والعفة والطهارة والصدق واللطف والتواضع والوداعة والاحسان اركان كل دين صحيح . قد اجتهدنا بكل ما يمكننا من صراحة الكلام وقوة البرهان في اقناعكم بان الارتقاء الحقيقي هو ارتقاء النفس الى تلك الصفات السامية التي شهدت لها كل الاجيال وكل الاديان وان التردي الظاهر بها رياء ومكر لا يخدعُ الانسان فكيف يخدعُ الله

ولم نحاول قلب معتقدكم واكتسابكم الى مذهبنا الخصوصي كما يتهمنا البعض واننا نرضى برفع المسئلة الى حكم ضمائركم فانكم قد صرفتم سنين كثيرة في هذه المدرسة وتحققتم ان غاية ما قصدناهُ من هذا القبيل هو ايفاء ما نراهُ من الحقوق الواجبة علينا لله ولكم ولاوصيائكم بحيث ان تربيتكم هنا لا تقتصر على العلم المدرسي والتهذيب العقلي بل تمتد الى تحسين الصفات الانسانية لاننا نحسب العلم ناقصاً اذا لم يكن مصحوباً بتربية النفس في سبل الصلاح . واننا لا نأبى الاقرار لدى الجميع اننا قد بذلنا جهدنا في ارشاد عقولكم الى هذه الامور الكلية واقناعكم بها واننا لا نعدّ عملنا نجاحاً مهما ظهر عليكم من براعة العلم الا اذا رأيناكم تخرجون من هذه المدرسة وقد نلتم فضل الادب مع فضل الحكمة . ومتى خرجتم واخذتم تباشرون اعمال الحيوة فتيقنوا ان اعيننا تتبعكم حيثما ذهبتم واننا لا نكف عن السوال عن مقامكم بين الناس وعلى الخصوص عن ثقتهم بكم وارتكانهم الى حسن تصرفكم . واذا ظهر لكم احياناً شيء من المعارضة لما نعهدونهُ من شعائر مذهبكم فكانت المعارضة بالحقيقة لما يخلّ بتلك المبادىء الاولية التي تقاوم على الخط المستفيم كل نوع من البطل والرياء والتي خلاصتها هذا : اذا لم تتقوا الله وتخشوهُ — اذا لم تحبوا تربيتكم وتعاملوهُ بالصدق والعدل والاحسان — اذا لم تجددوا صورة الله في قلوبكم ولم تكن حيوة البر والحق حياتكم — فان اظهار شعائر الدين وفروضهِ عَرَض لا يقوم مقام الجوهر والديانة التي لا تؤدّي الى صلاح العمل ليست ديانة يرضى الله بها

تخرجون الآن من هذه المدرسة وانتم في بداءة عمركم واماميكم ان شاء الله مستقبل طويل مهم لكم ولوطنكم . سوف ترون من تقلب الزمان وتقدم العلوم والصنائع والغنى والتمدن ما لا نراهُ نحن . واذ يرانا الزمان نهبط صخر الجبل الذي صعدنا الى قمتهِ ومن هناك اشرفنا على اشياء كثيرة عمَّاكم بعضها يراكم تصعدون الآن لتقفوا موضعنا يومًا ما . . . فكونوا اشداء مجتهدين . لا تملوا من العمل ولا تتكاسلوا فيهِ . تمطتم بالعلم فليكن العلم نطاقكم الدائم . اذكروا قول القائل : من طلب المعالي سهر الليالي . واذا كانت الايام معاكسة لكم الآن فسوف ترفع شان كل الذين يحملون حمل الحمولة على عاتقهم ويذهبون بالامانة والجهد والاستقامة في الطريق التي تهديهم اليها عناية الله

الدماغ والقوة العاقلة

مات منذ مدة عضوٌ من اعضاء الجمعية الانثروبولوجية بباريس اسمهُ اسلين وكان قد نذر جثتهُ لبعض الجمعيات لتشرّح بعد موتهِ . فلم يفرغ اعضاء الجمعية الانثروبولوجية من الاسف عليهِ حتى قام موسيو توليه وتلا عليهم مقالة في دماغ رفيقهم اسلين وجمجمتهِ كما ظهر بعد الكشف . كان اسلين هذا في اعتقادهِ هيولياً لا يسلم ان النفس جوهر وفي سياستهِ من حزب الجمهورية وفي هيئتهِ عظيم الطاقة على الشغل وكانت قوةُ العاقلة ثاقبة الادراك عظيمة الاستيعاب وحافظتهُ فوق المعتاد ومزاجهُ لطيفًا وطبعهُ رقيقًا حساسًا وذوقهُ مهذبًا وقلمهُ بليغًا وعبارتهُ حسنةً ومعارفهُ واسعة وهو على ذلك غيرُ مدعٍ هيوبٌ حتى يكاد يكون جبانًا . ولذلك زعم اصحابهُ ان يجدوا دماغهُ مطابقًا لاوصافهِ ولكنهم وجدوا التلافيف خشنة كثيفة حتى حسبها العلامة بروكا تلافيف رجل واطئ العقل . ووجدوا الفرجات التي يجعلها العلامة كرتيوله دليلاً على وطوء العقل والتي يغلب وجودها في النساء وفي الرجال الضعاف العقول واضحة فيهِ كل الوضوح ووجدوا الجمجمة رقيقة في بعض اقسامها حتى تكاد تكون شفافة . والدرز الجبهي غير كامل التعظم والنتو الجبهي الكبير غير منتظم الشكل في الجانب الايمن ووزن الدماغ ١٤٦٨ كراماً وذلك يزيد ستين قمحة عن المعدل الذي فرضهُ بروكا لوزن ادمغة من كان في سن اسلين وهو تسع واربعون سنة

جواب اللغز المدرج في الصفحة ٢٣٤ من السنة الثالثة لحضرة الشيخ صالح افندي المنير

الغزتُ لغزًا رقيقًا ليس يعجز عن ... ادراكهِ كل ذي علمٍ وذي ادبِ
لانهُ قلما تخلو مخاطبة ... من أن تجيء بهِ بل سائر الكتبِ
ولم أجد احدًا قد حلهُ فلذا ... صرحت فيهِ فمن يعن لهُ يصبِ